ثقافة الأطباء عند العرب

- ٣ -

« وتمهدت المرضى ، فانفتح علي من أبواب المعالجات المقتبسة من التجربة ما لا يوصف . وأنا مع ذلك أختلف الى الفقه وأناظر فيه . وأنا في هذا الوقت من أبناء (ست عشرة سنة) ، ثم توفرت على العلم والقراءة سنة ونصفا ، فأعدت قراءة المنطق وجميع أجزاء الفلسفة ، وفي هذه المدة ما نمت ليلة واحدة بطولها ، ولا اشتغلت في النهار بغيره ، وجمعت بين يدي ظهوراً . فكل حجة كنت أنظر فيها أثبت مقدمات قياسية ، ورتبتها في تلك الظهور ، ثم نظرت فيما عساها تنتج وراعيت شروط مقدماته حتى تحقق لي حقيقة الحق في تلك المسألة ، وكلما كنت أتحير في مسألة ولم أكن أظفر بالحد الأوسط في قياس ترددت الى الجامع وصليت وابتهلت الى مبدع الكل حتى فتح لي المنغلق وتيسر المتعسر ، وكنت أرجع بالليل الى داري وأضع السراج بين يدي وأشتغل بالقراءة والكتابة فهما غلبني النوم أو شعرت بضعف ، عدلت الى شرب قدح من الشراب ريثما تعود الي قوتي ، ثم أرجع الى القراءة ، ومهما أخذني أدنى نوم أحلم بتلك المسائل بأعيانها ، حتى أن كثيراً من المسائل اتضح لي وجوهها في المنام ، وكذلك حتى استحكم معي جميع العلوم ووقفت عليها بحسب الامكان الانساني ، وكل ما علمته في ذلك الوقت فهو كما علمته الآن لم أزدد فيه الى اليوم حتى أحكمت علم المنطق ، والطبيعي ، والرياضي ، ثم عدلت الى الإلهي وقرأت كتاب « ما بعد الطبيعة » فما كنت أفهم ما فيه والتبس علي غرض

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

واضعه حتى أعدت قراءته أربعين مرة وصار لي محفوظاً ، وأنا مع ذلك لا أفهمه ولا المقصود به ، وأيست من نفسي وقلت هذا كتاب لا سبيل الى فهمه . وإذ أنا في يوم من الأيام حضرت وقت العصر في الوراقين وبيد دلاّل مجلد ينادي عليه فعرضه علي فرددته ردّ متبرم معتقداً أن لا فائدة في هذا العلم . فقال لي اشتر مني هذا فانه رخيص أبيعكه بثلاثة دراهم وصاحبه محتاج الى ثمنه ، فاشتريته فاذا هو كتاب « لأبي نصر الفارابي » في أغراض كتاب « ما بعد الطبيعة » ورجعت الى بيتي وأسرعت قراءته فانفتح علي في الوقت أغراض ذلك الكتاب بسبب أنه كان لى محفوظاً على ظهر القلب . وفرحت بذلك وتصدقت في ثاني يوم بشيء كثير على الفقراء شكراً لله تعالى . وكان سلطان بخارى في ذلك الوقت نوح بن منصور واتفق له مرض حار فيه الأطباء ، وكان اسمي اشتهر بينهم بالتوفر على القراءة فأجروا ذكري بين يديه وسألوه إحضاري ، فحضرت وشاركتهم في مداواته ، وتوسمت بخدمته . فسألته يوماً الإذن لي في دخول دار كتبهم ومطالعتها وقراءة ما فيها من كتب الطب ، فأذن لي ، فدخلت داراً ذات بيوت كثيرة في كل بيت صناديق كتب منضدة بعضها على بعض ، في بيت كتب العربية والشعر ، وفي آخر القصة ، وكذلك في كل بيت كتب علم مفرد ، وطالعت فهرست كتب الأوائل ، وطلبت ما احتجت اليه ، ورأيت من الكتب ما لا يقع اسمه الى كثير من الناس قط ، ولا رأيته قط ولا رأيته من بعد ، فقرأت تلك الكتب ، وظهرت فوائدها وعرفت مرتبة كل رجل في علمه . فلما بلغت ثماني عشرة سنة من عمري فرغت من هذه العلوم كلها ، وكنت اذ ذاك للعلم أحفظ ولكنه اليوم معي أنضج والا فالعلم واحد لم يتجدد لي بعده شيء . وكان في جواري رجل يقال له أبو الحسن العروضي فسألني أن أؤلف له كتاباً جامعاً في هذا العلم فصنفت له المجموع

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وسميته به ، وأتيت به على سائر العلوم سوى الرياضي ولي إذ ذاك احدى وعشرون سنة من عمري ، وكان في جواري أيضاً رجل يقال له أبو بكر البرقي ، خوارزمي المولد ، فقيه النفس توحد في الفقه والتفسير والزهد ، مائل الى هذه العلوم . فسألني شرح الكتب فصنفت له كتاب « الحاصل والمحصول » في قريب من عشرين مجلدة ، وصنفت له في الأخلاق كتاب سميته كتاب « البر والإثم » وهذان الكتابان لا يوجدان إلا عنده فلم يعرفهما أحد ينتسخ منهما . ثم مات والدي وتصرفت بي الأحوال وتقلدت شيئاً من أعمال السلطان ودعتني الضرورة الى الارتحال عن « بخارى » والانتقال الى « كركانج » وكان أبو الحسين السهلي المحب لهذه العلوم بها وزيراً وقدمت الى الأمير بها وهو علي بن المأمون وكنت على زي الفقهاء إذ ذاك بطيلسان وتحت الحنك وأثبتوا لي مشاهرة دارّة تقوم بكفاية مثلي . ثم دعت الضرورة الى الانتقال الى « فسا »[1] ومنها الى « باورد »[2] ومنها الى « طوس »[3] ومنها الى « شقّان »[4] ومنها الى « سمنقان »[5] ومنها الى « جاجرم »[6] رأس حد خراسان ومنها الى « جرجان »

---

(١) فسا : أو بسا : كلمة أعجمية معناها الرياح الشمالية وهي مدينة بفارس قريبة من شيراز بأربعة مراحل قاعدة لكورة داراابجرد . معجم البلدان ٦ : ٣٧٦ .

(٢) باورد : وهي أبيورد بلد بخراسان .

(٣) طوس : مدينة بخراسان أيضاً بينها وبين نيسابور عشرة فراسخ وبها قبر هارون الرشيد وعلي بن موسى الرضي (معجم البلدان) .

(٤) شقّان : بلدة من نيسابور . ويقال شقان بالكسر لوجود جبل فيها ينشق عنه ماء وجبل آخر ينشق عنه ماء .

(٥) سمنقان : بلدة بالقرب من جاجرم من أعمال نيسابور في بلاد العجم .

(٦) جرجان : مدينة شهيرة بين جراستان وخراسان وكان أول من أحدث بناءها يزيد بن المهلّب بن أبي صفرة ومنها خرج البرمكي (معجم البلدان) .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وكل قصدي الأمير قابوس[1] وحبسه في القلاع وموته هناك . ثم مضيت الى « دهستان » ومرضت بها مرضاً صعبا وعدت الى « جرجان » واتصل أبوعبيد الجوزجاني بي وأنشأت في حالي قصيدة فيها بيت القائل :

لما عظمت فليس مصر واسعي لما غلا ثمني عدمت المشتري »

وفي جرجان صنف كتاب « المبدأ والمعاد » وكتاب « الأرصاد الكلية » وكتباً كثيرة كأول القانون ومختصر المجسطي وكثيراً من الرسائل ، ثم صنف في أرض الجبل بقية كتبه ، ثم انتقل الى الري واتصل بخدمة السيدة وابنها مجد الدولة وكان به مرض تغلب السوداء عليه فاشتغل بمداواته وأقام بها الى أن قصد شمس الدولة بعد قتل هلال بن بدر بن حسنويه وهزيمة عسكر بغداد ، ثم اتفقت أسباب أوجبت الضرورة لها خروجه الى قزوين ومنها الى همذان واتصاله « بكذبانويه » والنظر في أسبابها ، ثم اتفق معرفة شمس الدولة واحضاره مجلسه بسبب قولنج كان قد أصابه وعالجه حتى شفاه الله تعالى وفاز من ذلك المجلس بخلع كثيرة وعاد الى داره بعد ما أقام هنالك أربعين يوماً بلياليها وصار

---

(١) الأمير قابوس : هو أبو الحسن قابوس بن وشمكير بن زياد بن وردان شاه الجيلي الملقب شمس المعالي . أمير جرجان وبلاد الجبل وخراسان ، وليها سنة ٣٦٦ هـ واكتسح عضد الدولة البويهي مملكته سنة ٣٧١ هـ ، واستعادها قابوس سنة ٣٨٨ هـ ، فاشتد في معاقبة من خذلوه في حربه مع عضد الدولة فنفى من شعبه وقامت الثورة فخلعه القواد وولوا ابناً له ورضوا باقامته في احدى القلاع الى أن مات عام ٤٠٣ هـ وهو ديلمي الأصل ، متعرب ، نابغة في الأدب والانشاء ، وله شعر جيد في العربي والفارسي وكتاب يحوي رسائله سمي (كمال البلاغة) مطبوع . عن كتاب الأعلام ٢ : ٧٨٠ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

من ندماء الأمير [1] ، ثم اتفق نهوض الأمير شمس الدولة الى قرمسين لحرب عناز وخرج الشيخ في خدمته ثم توجه نحو همذان منهزماً راجعا . ثم سألوه تقلد الوزارة فتقلدها ، ثم اتفق تشويش العسكر عليه واشفاقهم منه على أنفسهم فكبسوا داره وأخذوه الى الحبس وأغاروا على أسبابه وأخذوا جميع ما يملكه وسألوا الأمير قتله فامتنع منه وعدل الى نفيه عن الدوله طلباً لمرضاتهم ، فتوارى في دار الشيخ أبي سعد بن دخدوك أربعين يوماً فعاود الأمير شمس الدولة القولنج وطلب الشيخ فحضر مجلسه فاعتذر الأمير اليه بكل الاعتذار فاشتغل بمعالجته وأقام عنده مكرماً مبجلاً وأعيدت اليه الوزارة ثانياً ، ثم سأله أبو عبيد الجوزجاني وهو صاحبه ، شرح كتب أرسطوطاليس فذكر أنه لا فراغ له الى ذلك في ذلك الوقت ، ولكن إن رضي منه بتصنيف كتاب يورد فيه ما صح عنده من هذه العلوم فعل بلا مناظرة المخالفين ولا اشتغال بالرد عليهم ، وقد رضي المومى اليه فابتدأ بالطبيعيات من كتاب سماه « الشفاء » وكان قد صنف الكتاب الأول من القانون وكان يجتمع كل ليلة في داره طلبة العلم وكان الجوزجاني يقرأ من الشفاء ويقرئ غيره من القانون نوبة ، فاذا فرغوا حضر

---

(١) الأمير شمس الدولة : هو أبو طاهر بن فخر الدوله البويهي حاكم حمدان وهمذان وكرمانشاه اضطرمت الفتن في أيامه فاستنجد عليها بحاكم أصفهان علاء الدين أو علاء الدولة من بني كاكويه فنجدوه وأخذوا الحكم منـــه سنة ٤١٥ هـ . وأما الأمير مجد الدولة فهو أبو طالب رستم بن فخر الدولة علي بن ركن الدولة حسن بن بويه . ثامن ملوكهم . خلف والده عام ٣٨٧ على حكومة العراق وتغلب على خراسان ولما جلس على عرش الحكم كان صبياً فأدارت والدته (سيدة خاتون) الحكم مكانه ولما بلغ أشده تولى هو بذاته الملك وبقي (٣٣) سنة فيه . وفي عام ٤٢٠ حاربه السلطان محمود الغزنوي بالقرب من الري وغلبه وأخذه أسيراً ثم آلت خراسان والعراق الى السلجوقيين . عن قاموس الأعلام - مجلد (٦) .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

المغنون على اختلاف طبقاتهم وهيء مجلس الشراب بآلاته وكانوا يشتغلون به . وكان التدريس بالليل لعدم الفراغ بالنهار خدمة للأمير فقضى على ذلك زمناً .

ثم توجه شمس الدولة الى (طارم) (١) لحرب الأمير بها وعاوده القولنج قرب ذلك الموضع واشتد عليه ، وانضاف الى ذلك أمراض أخرى جلبها سوء تدبيره وقلة القبول من الشيخ فخاف عسكره وفاته ورجعوا به طالبين همذان في المهد فتوفي في الطريق في مهد ثم بويع ابن شمس الدولة وطلبوا استيزار الشيخ فأبى عليهم وكاتب علاء الدولة (٢) سراً يطلب خدمته والانضمام الى جوانبه وأقام في دار أبي غالب العطار متوارياً وطلب منه صاحبه الجوزجاني اتمام كتاب الشفاء ، فاستحضر أبا غالب وطلب الكاغد والمحبرة فأحضرهما وكتب الشيخ في قريب من عشرين جزءاً على الثمن بخطه رؤوس المسائل وبقي فيه يومين حتى كتب رؤوس المسائل كلها بلا كتاب يحضره ولا أصل يرجع اليه ، بل من حفظه وعن ظهر قلبه . ثم ترك الشيخ تلك الأجزاء بين يديه وأخذ الكاغد فكان ينظر في كل مسألة ويكتب شرحها ، فكان يكتب كل يوم خمسين ورقة حتى أتى على جميع الطبيعيات والإلهيات ما خلا كتابي الحيوان والنبات ،

---

(١) طارم : أو تارم : كورة واسعة في الجبال بين قزوين وجيلان . فيها قرى كثيرة وجبال وعرة وليس فيها مدينة مشهورة . وفي معجم البلدان انها أيضاً بليدة أخرى في آخر حدود فارس من جهة كرمان . وبين تارم وشيراز ٨٢ فرسخاً . ويقول صاحب (قاموس الأعلام) أن (طارم) هو نهر تابع لتركستان الشرقية يتألف بين كاشغر ويارقند ثم يتصل (بقره صو) متجهاً الى الشرق وبعد أن تنصب عليه أنهر الشمال يشكل بحيرة ومنها يجري الى الجنوب الشرقي .

(٢) علاء الدولة : ملك الري عام ٥١٦ هـ وهو ابن فرامرز بن علي بن فرامرز ، وفي زمانه عاش الخيام والغزالي والنظام .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وابتدأ بالمنطق وكتب منه جزءاً ثم اتهمه تاج الملك [1] بمكاتبته علاء الدولة فأنكر عليه ذلك وحث في طلبه فدل عليه بعض أعدائه فأخذوه وأدوه الى قلعة يقال لها « فردجان » وأنشأ هنالك قصيدة منها :

دخولي في اليقين كما تراه وكل الشك في أمر الخروج

وبقي فيها أربعة أشهر ثم قصد علاء الدولة همذان وأخذها وانهزم تاج الملك ومرّ الى تلك القلعة بعينها ثم رجع علاء الدولة عن همذان وعاد تاج الملك وابن شمس الدولة الى همذان وحملوا معهم الشيخ الى همذان ونزل في دار العلوي واشتغل هنالك بتصنيف المنطق من كتاب الشفاء ، وكان قد صنف في القلعة كتاب الهدايات ورسالة حي بن يقظان وكتاب القولنج . وأما الأدوية القلبية فانما صنفها أول وروده الى همذان .

وكان قد تقضى على هذا زمان وتاج الملك في أثناء هذا يمنيه ويعده بمواعيد جميلة ، ثم عنّ للشيخ التوجه الى أصفهان فخرج متنكراً هو وأخوه وصديقه وغلامان معه في زي الصوفية الى أن وصلوا الى طبران على باب أصفهان بعد أن قاسوا شدائد الطريق فاستقبلهم أصدقاء الشيخ وندماء الأمير علاء الدولة وخواصه وحُمل اليه الثياب والمراكب الخاصة وأنزل في محل يقال له (كونكبند) في دار عبد الله بن باني وفيها من الآلات والفرش ما يحتاج اليه . وحضر مجلس علاء الدولة فصادف في مجلسه الإكرام والإعزاز الذي

---

(١) تاج الملك : ويسمى أبو الغنايم مرزبان بن خسرو فيروز وزير ملكشاه السلجوقي . تولى الوزارة بعد الوزير نظام الملك ، وتعيّن وصياً على ابن ملكشاه الذي كان عمره (٤) سنين ، وفي أثناء تدبيره الملك الشق أصحاب سلطة نظام وثاروا على الدولة في أصفهان وفي الحرب الذي جرى بين عسكر ابن ملكشاه وبين أنصار نظام الملك انكسر الجيش الأول وهرب تاج الملك الى يزدجرد وهناك استوزره (بركيارق) ولكن قتله جماعة نظام الملك في عام (٤٨٦) ، وبركيارق هو ابن ملكشاه وحفيد آلب أرسلان تولى عرش أبيه في ايران عام ٤٨٤ وحكم (١٣) سنة وتوفي وعمره (٤٥) سنة .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

يستحقه مثله ثم رسم الأمير علاء الدولة ليالي الجمعات مجلس النظر بين يديه بحضرة سائر العلماء على اختلاف طبقاتهم والشيخ من جملتهم فما كان يطاق في شيء من العلوم . واشتغل في أصفهان بتتميم كتاب الشفاء ففرغ من المنطق والمجسطي (الهيئة) وكان قد اختصر أوقليدس (الهندسة) والأرثماطيقي (الحساب) والموسيقى ، وأورد في كل كتاب من الرياضيات زيادات رأى أن الحاجة اليها داعية . أما في المجسطي فأورد عشرة أشكال في اختلاف المنظر . وأورد في آخر المجسطي في علم الهيئة أشياء لم يسبق اليها ، وأورد في أوقليدس شبها ، وفي الارثماطيقي خواص حسنة ، وفي الموسيقى مسائل غفل عنها الأولون ، وأتمّ الكتاب المعروف بالشفاء ما خلا كتابي النبات والحيوان فانه صنفهما في السنة التي توجه فيها علاء الدولة الى (سابورخواست) في الطريق . وصنف أيضاً في الطريق « كتاب النجاة » واختص بعلاء الدولة وصار من ندمائه الى أن عزم علاء الدولة على قصد همذان وخرج الشيخ في الصحبة فجرى ليلة بين يدي علاء الدولة ذكر الخلل الحاصل في التقاويم المعمولة بحسب الأرصاد القديمة فأمر الأمير الشيخ بالاشتغال برصد هذه الكواكب وأطلق له من الأموال ما يحتاج اليه ، وابتدأ الشيخ به وولي الشيخ الجوزجاني اتخاذ آلاتها واستخدام صناعتها حتى ظهر كثير من المسائل ، فكان يقع الخلل في أمر الرصد لكثرة الأسفار وعوائقها . وصنف الشيخ بأصفهان كتاب العلائي ، وكان من عجائب أمر الشيخ اذا وقع له كتاب مجدد لا ينظر فيه على الولاء بل كان يقصد المواضع الصعبة منه والمسائل المشكلة فينظر ما قاله مصنفه فيها فيتبيّن مرتبته في العلم ودرجته في الفهم . وفي يوم من الأيام كان الشيخ جالساً بين يدي الأمير وأبو منصور الجبائي حاضر فجرى في اللغة مسألة تكلم فيها الشيخ بما حضره فالتفت أبو منصور الى الشيخ يقول انك فيلسوف وحكيم ، ولكن لم تقرأ من اللغة ما يرضي كلامك فيها ، فاستنكف الشيخ أبو علي بن سينا من هذا الكلام

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وتوفر على درس اللغة ثلاث سنين واستهدى كتاب تهذيب اللغة من خراسان من تصنيف أبي منصور الأزهري ، فبلغ الشيخ في اللغة طبقة قلما يتفق مثلها ، وأنشأ ثلاث قصائد ضمنها ألفاظاً غريبة من اللغة وكتب ثلاثة كتب أحدها على طريقة ابن العميد والآخر على طريقة الصابي والآخر على طريقة الصاحب ، وأمر بتجليدها وإخلاق جلدها ، ثم أوعز الى الأمير فعرض تلك المجلدة على أبي منصور الجبائي وذكر أنهم ظفروا بهذه المجلدة في الصحراء وقت الصيد فيجب أن يتفقدها ويقول لهم ما فيها فنظر فيها أبو منصور وأشكل عليه كثير من ألفاظها وما فيها ، فقال له الشيخ ان ما تجهله من هذا الكتاب فهو مذكور في الموضع الفلاني من كتب اللغة وذكر له كثيراً من الكتب المعروفة في اللغة كان الشيخ حفظ تلك الألفاظ منها . وكان أبو منصور مجزفاً فيما يورده من اللغة غير ثقة فيها ففطن أبو منصور أن تلك الرسائل من تصنيف الشيخ وان الذي حمله عليه ما جبهه به في ذلك اليوم فتنصل واعتذر اليه .

ثم صنف الشيخ كتاباً في اللغة سماه (لسان العرب) لم يصنف في اللغة مثله ولم ينقله الى البياض حتى توفي فبقي على مسودته لا يهتدي أحد الى ترتيبه . وكان قد حصل لابن سينا تجارب كثيرة فيما باشره من المعالجات عزم على تدوينها في كتاب (القانون) وكان قد علقها على أجزاء فضاعت قبل اتمام كتاب القانون . من ذلك أنه صدع يوماً فتصور أن مادة [1] تريد النزول

---

(١) يظهر أن الدماغ كان محتقناً وضغط الدم عالياً فخاف من النزف الدماغي وعليه استعمل الثلج وتبريد المحل لهذه الغاية وهو تدبير حكيم لمنع الالتهاب في سحايا الدماغ وفي ايقاف الاحتقان . وقد يكون الورم حاداً في حجاب الدماغ الرقيق والغليظ دون جرمه وان كان جرمه قد يعرض له ورم وليس كما ظن بعض المتطببين أن الدماغ لا يرم ... أما علاماته المشتركة لأصنافه الحقيقية فحمى لازمة يابسة تشتد في الظاهرة على الأكثر وهذيان يفوط تارة وينقطع أخرى وكراهة للكلام وكلا منه الى آخر ما وصفه ابن سينا في كتابه وسماه « قرانيطس ⇇ Crinatis) ومما وصفه ابن سينا أمراض داء الجنب وخراج الكبد والتهاب الحيزوم وفرق بينهم ، والسكتة الدماغية ، وحصى المثانة المرمية .

شبكة الألوكة
هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

الى حجاب رأسه ، وأنه لا يأمن ورماً يحصل فيه فأمر باحضار ثلج كثير ودقه ولفه في خرقة وتغطية رأسه بها . ففعل ذلك حتى قوي الموضع وامتنع عن قبول تلك المادة وعوفي .

وبينما كان قاصداً علاء الدولة وهو في همذان عاوده القولنج في الطريق الى أن وصل الى همذان وعلم أن قوته قد سقطت وأنها لا تفي بدفع المرض ، فأهمل من اداة نفسه وقال المدبّر الذي في بدني ـ ويعني الطبيعة ـ عجز عن تدبير بدني فلا تنفعني المعالجة ثم اغتسل وتاب وتصدق بما بقي معه على الفقراء ورد المظالم الى من عرفه من أربابها وأعتق غلمانه . وكان يحفظ القرآن فيختم في كل ثلاثة أيام ثم مات في الجمعة الأولى من رمضان سنة ٤٢٨ هـ ودفن في همذان ، وكان يوم توفي قد بلغ من العمر (٥٨) سنة وفي رواية ابن أبي أصيبعة (٥٣) سنة .

والذي يستنتج من هذه السيرة الحافلة بالأحداث أمور لا يسعنا إغفالها لأن فيها ما ينشر لنا الفهم عن أصول التحصيل الذي كان متبعاً حتى القرن الرابع والخامس ، وماذا كان يتعلم معظم الأطباء . وأما عن ابن سينا هذا الحكيم النابغة والفيلسوف العظيم فيمكن ذكر هذه الأمور الهامة على الوجه الآتي :

أولاً — ان ابن سينا أكمل العلوم وحصّل الطب وهو لا يزال بين السادس عشرة والاحدى وعشرين من عمره ، وان ما تعلّمه من علوم ذلك العصر لم يزدد بعد ذلك ولكنه زاد نضوجاً وتجربة .

ثانياً — ان قوة الحفظ والتذكر ، والتحري ، والقياس ، والفهم ، كانت فيه قوية ونادرة المثال بين الأطباء والحكماء . يدلنا على ذلك حفظه القرآن ، واستظهاره كتب اللغة والفقه والحديث والعروض ، ثم اطلاعه على ما ترجم من الكتب اليونانية والفارسية وحفظه علومها وحفظه كتاب (ما وراء الطبيعة) للفارابي وقراءته أربعين مرة حتى فتح عليه مغاليق قضاياه .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ثالثاً — اطلاعه على الفلسفة والعلوم الإلهية وتبحره في مسائلها وتصنيفه الكتب الكثيرة عنها .

رابعاً — انشغاله الدائم في الحل والسفر في التصنيف ، والتدريس ، والاملاء في مختلف العلوم حتى زاد ما كتبه في جميعها بما ينوف عن المائة كتاب .

خامساً — لم يمنعه طبه ولا التصنيف عن الاشتغال في السياسة والتوظف في الوزارة وتدبير أمور الملك لعدة ملوك من آل بويه والسلاجقة .

سادساً — حبه العظيم للموسيقى ، والرياضيات ، والفلك ، واشتغاله فيها وتصنيفه الكتب فيها .

سابعاً — اتقانه العميق الدقيق لعلوم اللغة العربية ووضعه كتاب « لسان العرب » وتأليفه الرسائل الثلاث التي حاكى بها ابن العميد ، والصابيء ، والصاحب . ونظمه القصائد البليغة في التصوف والإلهيات ، والأراجيز في الطب والصحة ، وفي ذلك أثبت نزعته الفنية وشعوره الحساس .

ثامناً — أثبت أنه أعظم شخصية اسلامية تمثل المعرفة الموسوعية في جميع العلوم .

تاسعاً — تمتعه بملاذ الحياة كتنسم لراحة النفس ، وتعديل فعل الغرائز ، وتهذيب الطباع .

عاشراً — استجابته لطبيعته الوثابة ، وفكره المنطقي ، وفلسفته العميقة السامية في تصانيفه ووضعه وتأليفه كتاب (القانون) الذي تناول علم الطب وفروعه حتى زمانه ، فبوّبه وصنفه واستخلصه من الكتب التي اطلع عليها وجرده من الزوائد والخرافات والشعوذة ، ورتبه ترتيباً علمياً أضاف عليه ما استقرأه وشاهده ، وجربه فكان خير كتاب لا يستغني عنه الأطباء ولذا نظر فيه كل الذين أتوا بعده وغيره منهم اختصروه وادخروه وبقي حتى القرن الخامس عشر ميلادي يدرّس في مدارس أوروبا والشرق ، وكانت آخر طبعة له طبعت في روما عام ١٥٩٣ م .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

حادي عشر — ان ابن سينا كان أول من أشار بوضوح الى عدوى السل الرئوي وانتقال الأمراض الى الانسان بواسطة الماء والشراب ، وأول من وصف داء الفيلاريا وانتشاره في الجسم ، وأول من وصف داء الجمرة الخبيثة وسماها بالنار الفارسية ، كما أن الرازي أول من وصف بدقة داء الجدري والحصبة وفرق بينهما ، وأول من قال بالعدوى الوراثية . والطبري أول من اكتشف الحشرة التي تسبب داء الجرب ووصفها .

ثاني عشر — استعمل الرياضة الروحية والرياضة البدنية في طلب الهداية وحل مغاليق القضايا والمسائل وهي طريقة صحيحة لتصفية الذهن واراحة الفكر .

ثالث عشر — كانت عبقريته من النوع الذي لا يستقر على حال وحياته موسومة بالشواذ والغرابة يقضي الليالي مكباً على القراءة والكتابة ، ويتناول أحياناً المنبهات ليبقى واعياً ، واذا أتاه النوم تناوبته الأحلام فيما كان يقرأ ويفتكر ، وكان حينما ينتهي من عمله يستسلم الى شرب الخمرة والطرب .

رابع عشر — كانت له أطماع سياسية تجعله دائم التنقل من أمير الى آخر ، ومن مدينة الى أخرى ، ومتى أدرك حظه من السياسة كان ينسى الطب ، وبعكس ذلك عندما تخذله السياسة كان يعود الى ممارسة الطب والتأليف . ودل نشاطه على أنه كان قادراً على تأليف كتاب في الليلة واحدة .

خامس عشر — كان قوي الحجة قاطع البرهان ، وهذا ما جعل كتاباته شديدة التأثير على رجال العلم والفكر في عصره وفي القرون الوسطى . وقد قال عنه « وليم أوسلر » ان قانونه الطبي كان الإنجيل الطبي لأطول فترة من الزمن درس فيه الطلاب والعلماء مدة تنوف عن ثمانية قرون . أما تآليفه الاخرى فأهمها قوانين ومعالجات طبية ، الأدوية القلبية ، كتاب الشفاء وكتاب النجاة وكتب أخرى منها ما هو مطبوع والباقي لم يطبع عدا ما له من مؤلفات في العلوم الأخرى .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

سادس عشر — يدل شعره على نزعة فلسفية صوفية . ومن قصائده الشهيرة قصيدة في النفس ومطلعها :

هبطت اليك من المحل الأرفع ... ورقاء ذات تعـزز وتمنع
محجوبة عن كل مقلة عارف ... وهي التي سفرت ولم تتبرقع
وصلت على كره اليك وربمـا ... كرهت فراقك وهي ذات تفجع
أنفت وما أنست فلما واصلت ... ألفت مجاورة الخراب البلقع
وأظنها نسيت عهوداً بالحمى ... ومنازلاً بفراقها لم تقنـع
حتى اذا اتصلت بها وهبوطها ... في ميم مركزها بذات الأجرع
علقت بها ثاء الثقيل فأصبحت ... بين المعالم والطلول الخضع
تبكي اذا ذكرت ديارا بالحمى ... بدامع تهمي ولمـا تقطع
وتظل ساجعة على الدمن التي ... درست بتكرار الرياح الأربع
اذ عاقها الشرك الكثيف وصدها ... قفص عن الأوج الفسيح الأربع
حتى اذا قرب المسير الى الحمى ... ودنا الرحيل الى الفضاء الأوسع
سجعت وقد كشف الغطاء فأبصرت ... ما ليس يدرك بالعيون الهجع
وغدت مفارقة لكل مخلف ... عنها حليف الترب غير مشيع
وغدت تغرد فوق ذروة شاهق ... والعلم يرفع كل من لم يرفع
فلأي شيء أهبطت من شاهق ... سام الى قعر الحضيض الأوضع
ان كان أرسلها الإله لحكمة ... طويت عن الفطن اللبيب الأروع
فهبوطها ان كان ضربة لازب ... لتكون سامعة بما لم تسمع
وتعود عالمة بكل خفيـة ... في العالمين تخرقهـا لم يرفع
وهي التي قطع الزمان طريقها ... حتى لقد غربت بغير المطلع
فكأنها برق تألق في الحمى ... ثم انطـوى فكأنه لم يلمع

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وتقول وصيته التي أوصى بها صديقه وهو أبو سعيد بن أبي الخير الصوفي على ماله من عقيدة دينية ومن مبادئ أخلاقية واجتماعية يجدر بنا نقلها كما هي تكملة لبحثنا عن ابن سينا وسيرته .

قال الشيخ الرئيس : « ليكن الله تعالى أول فكر له وآخره ، وباطن كل اعتبار وظاهره ، ولتكن عينه نفسه مكحولة بالنظر اليه ، وقدمها موقوفة على المثول بين يديه مسافراً بعقله في الملكوت الأعلى وما فيه من آيات ربه الكبرى . واذا انحط الى قراره فليتزه الله تعالى في آثاره فانه باطن ظاهر تجلى لكل شيء بكل شيء

« ففي كل شيء له آية تدل على أنه واحد »

فاذا صارت هذه الحال له ملكة انطبع فيها نقوش الملكوت وتجلى له قدس اللاهوت فألف الأنس الأعلى ، وذاق اللذة القصوى ، وأخذ عن نفسه من هو بها أولى ، وفاضت عليه السكينة ، وحقت له الطمأنينة ، وتطلع على العالم الأدنى اطلاع راحم لأهله مستوهن لحيله ، مستخف لثقله ، مستحسن به لعقله ، مستضل لطرقه وتذكر نفسه وهي بها لهجة وبهجتها بهجة ، فتعجب منها ، ومنهم تعجبهم منه ، وقد ودعها وكان معها كأنه ليس معها . وليعلم أن أفضل الحركات الصلاة ، وأمثل السكنات الصيام ، وأنفع البر الصدقة ، وأزكى السر الاحتمال ، وأبطل السعي المراءاة ، ولن تخلص النفس عن الدرن ما التفتت الى قيل وقال ، ومناقشة وجدال ، وانفعلت بحال من الأحوال . وخير العمل ما صدر عن خالص نية ، وخير النية ما ينفرج عن جناب علم ، والحكمة أم الفضائل ، ومعرفة الله أولى الأوائل . اليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه ، ثم يقبل على هذه النفس المزينة بكمالها الذاتي فيحرسها عن التلطخ بما يشينها من الهيئات الانقيادية للنفوس الموادية التي اذا بقيت في النفس المزينة كان حالها عند الانفصال كحالها عند الاتصال إذ جوهرها غير مشارب ولا مخالط ، وانما بدنسها هيئة الانقياد لتلك الصواحب ، بل يفيدها هيئات الاستيلاء والسياسة

(م)

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

والاستعلاء والرياسة ، و كذلك يهجر الكذب قولاً وتخيلاً حتى تحدث للنفس هيئة صدوقة فتصدق الأحلام والرؤيا . وأما اللذات فيستعملها على اصلاح الطبيعة وابقاء الشخص أو النوع أو السياسة . أما المشروب فان يهجر شربه تلهياً بل تشفياً وتداوياً . ويعاشر كل فرقة بعادته ورسمه ، ويسمح بالمقدور والتقدير من المال ، ويركب لمساعدة الناس كثيراً مما هو خلاف طبعه ، ثم لا يقصر في الأوضاع الشرعية ، وبعظم السنن الإلهية ، والمواظبة على التعبدات البدنية ، ويكون دوام عمره اذا خلا وخلص من المعاشرين ، تطربه الزينة في النفس ، والفكرة في الملك الأول وملكه ، و كيس النفس عن عيار الناس من حيث لا يقف عليه الناس . عاهد الله ، أنه يسير بهذه السيرة ويدين بهذه الديانة والله ولي الذين آمنوا وهو حسبنا ونعم الوكيل » .

أما ما ذكر عن ملذاته وافراطه الجنسي فلا يقبل صدقه كما ورد لأن من كان مثل الشيخ ابن سينا في نبوغه وعبقريته وعلمه وانسانيته ومطامعه ومشاغله ، وسهره وصلاته ، وفلسفته وصوفيته ، وتآليفه وكتابته ، يصعب علينا وصفه بما كتبه بعضهم عنه . وفي عقيدتي انه براء منه . أليس هو القائل :

احفظ منيك ما استطعت فانه ماء الحياة يصب في الأرحام

فكيف يقول هذا ويفرط في شهواته وملذاته ؟ وماذا نقول عن وصيته وعن سيرته في شبابه ؟ ان الذين ترجمنا لهم سيرتهم اتخذناهم نموذجاً لتصوير الزمن الذي عاشوا فيه ، والحياة الاجتماعية التي تربوا في بيئتها ، وماهية العلوم التي درسوها ، والمناهج الدراسية التي اتبعوها ، وما أردنا تعداد كل من يجب ذكرهم من عباقرة الأطباء العرب بل اكتفينا بهؤلاء الثلاثة خوفاً من الإطالة والخروج عن الغاية وهم في نظرنا خير من يمثلون ثقافة العرب الطبية .

(يتبع) عبد الرحمن الكيالي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net